



obeikandi.com

مصر

علمنا أن تعميم العقائد المشتركة كان مرتها بقيام الدول الواسعة التي تطوى فيها عقائد القبائل والشعوب وتتجاوز أطرافها حدود الأمة الواحدة، ونسميها في عصرنا هذا بالإمبراطوريات. والدول التي كان لها القسط الأوفى من هذه المساهمة العامة هي مصر وبابل والهند والصين واليونان، وتضاف إليها اليابان لولا أنها في عزلتها قد أخذت أكثر مما أعطت، وقد تخلفت من جراء هذه العزلة عن بعض الأطوار التي سبقتها إليها الأمم المتصلة بالمعاملات والمبادلات، فتلبثت ببقايا الوثنية إلى مطلع العصر الحديث.

أما مصر فتاريخها في أطوار الاعتقاد هو تاريخ جميع الأطوار من أديانها إلى أعلاها بلا استثناء. فشاعت فيها «الطواطم» في كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة وبعد هذا الاتحاد، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسنا والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هي بقايا «طوطمية» تحولت مع الزمن إلى رموز، ثم فقدت معنى الرموز واندمجت في العبادات المترتبة على شكل من الأشكال.

وشاعت فيها عقيدة الأرواح، فكان المصريون من أعرق الأمم التي آمنت بالبعث والشواب والعقاب بعد الموت، ورمزوا للروح «كا» تارة بزهرة وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى وتارة بتمساح أو ثعبان، وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح، ولعل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم في زمان سابق لزمان الاعتقاد بالبعث والشواب والعقاب.

أما أثبت العبادات وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور فهي عبادة الموتى والأسلاف دون مرء. فإن عناية المصرى بتشييد القبور وتحنيط الجثث

وإحياء الذكريات لا تفوقها عناية شعب من الشعوب. وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى ما بعد بزوغ الديانة الشمسية وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة، ثم تغليبه على عالم الخلود وموازين الجزاء.

فقصة أوزيريس هي قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث في الأسر المالكة في تلك العصور السحيقة، وهي قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه «ست» عرشه فقتله. وجاءت زوجته «إيزيس» بعد ذلك بابن اسمه «حوريس» أخفته في مكان قصي حتى بلغ الرشد. فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على لوغ حقه في العرش، وعاد «ست» ينارعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن «غير شرعى» من أب غير أوزيريس، فلم تقبل الآلهة دعواه وحكمت لحوريس بالميراث.

وتقول الأسطورة أن أوزيريس ولد في الوجه البحرى ولكن رأسه دفن في الصعيد بقرية العرابة المدفونة. وأن «ست» حين قتله فرق أعضائه بين البقاع لكيلا يعثر على جثته أحد من المطالبين بثأره، ولكن إيزيس جمعت هذه الأعضاء وتعهدها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذى قدح عمه فى نسبه. وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق فى محاولته وقنع بالسيادة على عالم «المغرب» حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات.

ولللخصب شأن لا يستغرب فى ديانة مصر القديمة. فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم، أو بامرأة تنحنى على الأرض بذراعيها ويسندها «شو» إله الهواء بكلتا يديه، وأقدم ما تخيلوه فى أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة من الأبناء هم «شو» و«تفوت» القائمان بالفضاء «وجب» رب الأرض و«توت» رب السماء. ثم تزوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس، فهم تسعة آلهة فى مبدأ الخليقة نشأوا

من تزواج الأرض والسماء. ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس، وهناك صيغة أخرى من قصة الخلق فحواها أن «رع» نفسه - إله الشمس - كان ملكا على مصر في زمن من الأزمان، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة في الأساطير: وهى أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشتر فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربة النجمة «حاتحور» ثم أشفق عليهم من قسوتها فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها فأقام هناك واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس.

وقد فعل غربال الزمن فعله فى تصفية هذه العقائد والأرباب. ففسى أوزيريس السلف المعبود ورسخ فى الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعدها، وجمعت بينها كلها عبادة «أمون» ثم عبادة أتون.

وعبادة «أتون» هى أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق فى الأرض والسماء. . وإنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تتهيا لغيرها من الدول الكبرى فى تلك الفترة. . فكانت فى أقاليم القطر - قبل ظهور عبادة أتون - ثلاث عبادات «شمسية» تتنافس فى المبادئ الروحية ووسائل النفوذ التى تتغلب بها على النظراء.

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح. . وكانت عين شمس أو «هليوبوليس» تدين له باسم رع وأحيانا باسم «أتوم». وكانت طيبة تدين له باسم أمون.

ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة «فتاح» كانت أقرب هذه العبادات إلى المعانى الروحية فارتفع «فتاح» من صانع حاذق بالبناء

والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذى أصبح فى اعتقادهم مثالا للعالم بأرضه وسمائه، وما هى إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذى يمثل العالم كله وبناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان. وارتفع فتاح طبقة أخرى فى مدارج القدرة والتتره عن النظراء، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس وتمثل لعباده روحا مسيطرة على كل حركة وكل سكون فى جميع المخلوقات. من ذات حياة وغير ذات حياة. فكا فتاح كما جاء فى إحدى صلواته هو «الفؤاد واللسان للمعبودات، ومنه يبدأ الفهم والمقال، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذى وجود إلا وهو من وحى فتاح..».

وما وجد شىء من الأشياء قط إل بكلمة من لسانه صدرت عن خاط فى فؤاده. فكلتمته هى الخلق والتكوين.

ويرى المؤرخ الكبير برستيد أن عقيدة فتاح هى أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الإغريق الأقدمين. فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فإذا بما شاء موجود كما شاء. ومن المحتمل جدا أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة.

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف فى تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وانصرافهم إليها كما تعاضم سلطان الكهان فى طيبة وتفاقت سيطرتهم على مناصب الدولة، وهم كهان أمون.

وقد توطدت كهانة أمون فى أيام المملكة الوسطى وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثانية عشرة، ومرشح أمون - أو كهان أمون بعبارة أخرى للسيادة المطلقة على أرجاء البلاد.

واتسعت الدولة المصرية فى عهد تحوتمس الثالث حتى تجاوزت حدودها بلاد النوبة والصومال فى الجنوب، وامتدت إلى الفرات وآسيا الصغرى فى الشرق والشمال، وكان اتساع الأفق فى السياسة مقترنا باتساع الأفق فى تصور العالم وما ينبغى لخالفه من التعظيم والتتزيه، فارتقى الفكر الإنسانى فى هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية، ثم إلى بيئة أبدية تنطوى فيها أبعاد المكان والزمان.

وظغى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ فى البلاد من جراء هذه القربى بينهم وبين الملك العظيم. فاستأثر رئيسهم بلقب «الرئيس» فى أنحاء الديار، وشيقوا الخناق على كهان رع وفتاح، ولزموا حدودهم مع الملك العظيم فى أثناء حياته لقوته ورهبته وعلو اسمه بالمظافر والفتوح، وفرط ما أغدق عليهم من الهبات والحبوس والأوقاف، ولكنهم ذهبوا فى الطغيان كل مذهب على عهد خلفائه، فطمعوا فى نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين.

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ، فتكلم أمنحتب الثالث عن أمون فى بعض أوامره وتسجيلاته باسم آخر: هو اسم أتون.

وساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله فى أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس، وأن مسالك الكهان الدنيويين من شيعة أمون لم تكن وفاق الآداب والمعاديات التى استلزمها ارتقاء المصريين فى فهم كمال الإله.

فلما تولى الملك أمنحتب الرابع - أو إخناتون ما تسمى بعد ذلك - كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه، وكان اتساع الأفق فى النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد، وأعان عبقرته على التدعيم بعد التمهيد.

وقد حفظت لنا النقوش والتماثيل والألواح وأوراق البردى كثيرا من أخبار إخناتون وأحواله وملامحه وسيرته في مملكته وفي بيته، وتكفى لمحات عابرة إلى شكل مجتمه وتركيب بنيته وأساليب تفكيره ومناحي عباراته للعلم بأنه كان عبقريا من أولئك العباقرة الملهمين، الذين يحدثنا النفسانيون أنهم يتلقون العبقرية على حساب أبدانهم وهناءتهم في حياتهم كما نقول في تعبير هذه الأيام.

وكان الفتى إخناتون حدثنا ناشئا عند ولاية الملك، معروفا بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بنفسه في صلواته ومناجاته، وكان لطيف الحس حالم النفس منصرفا عن البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التي توطد بها ملك آباءه وأجداده فطمع فيه كهنة آمون، وخيل إليهم أنهم مالكون زمام الأمر كله على يديه.

غير أن الفتى الالم كان عبقريا يحب الابتكار والتفقه في العبادة بالعقل والبداهة المستقلة، ولم يكن تقليديا يلقي بزمامه لمن يسيطر عليه.

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس، فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال.

فقمعهم قمعا شديدا ومحا اسم آون من كل مكان حتى هياكل أبيه واسمه الذي يبدأ باسم آمون، وجهر بعبادة «أتون» دون سواه، وهجر العاصمة التي ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى في أواسط الصعيد، وهبها لربه الواحد الأحد وسماها «أخت أتون».

والغنى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنّة، وأولهم الرب القديم أوزيريس، فكان هذا سببا من أسباب غلبته يومئذ، وأسباب التمرد عليه بعد حين.

ومن صلوات إخناتون تعرف صفات الله الذي دعا إلى عبادته دون

سواه، فإذا هي أعلى الصفات التي ارتقى إليها فهم البشر قديما في إدراك كمال الإله.

فهو الحى المبدئ الحياة، الملك الذى لا شريك له فى الملك، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق، بعيد بكماله قريب بالآئه، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطيور فى الهواء، وترقص الحملان من مرح فى الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه، قد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغ عليهما حلال الجمال، وهو ملء البصر وملء الفؤاد، وهو هو الوجود وواهب الوجود، وشعوب الأرض كلها عبده لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون.

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأرثر ويجال Weigall مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد الزامير العبرية فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات.

ومن أمثلتها قول إخناتون: «إذا ما هبطت فى أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت.. فتخرج الأسود من عرائنها والشعابين من جحورها..».

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه «إنك تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمرجر الأشبال لتخطف ولتلتمس من الله طعامها».

ويمضى المزمور قائلا: «.. تشرق الشمس فتجتمع وفى مأويها تريض والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء. ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت. والأرض ملآنة من غناك، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف. وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار. هناك تجرى السفن، ولويathan «التمساح» خلقته ليلعب فيه..».

ومثله فى صلوات إخناتون: «ما أكثر خلائقك التى نجعلها أنت إله الواحد الذى لا إله غيره، خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار».

«.. تسير السفن مع التيار وفى وجهه، وكل طريق يفتح للمسالك لأنك أشرقت فى السماء. ويرقص السمك فى النهر أمامك، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار».

«.. وتضىء فتزول الظلمة.. وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك.. ويمضى سكان العالم يعملون».

وقد خطر لويجال - كما قال فى كتابه عن حياة إخناتون وعصره - أن أتون وآتوم تصحيف «أدوناي» بمعنى السيد أو الإله فى اللغة العبرية، وأن إخناتون ورث آراءه من أمه وه تنتهى إلى سلالة آسيوية من شعب يقيم بين سورية وآسيا الصغرى، حيث يعبد أدوناي أو أتون، على مختلف اللهجات.

وهذا وهم جلبه التشابه فى الأسماء. لأن «آتوم» من أقدم الأرباب المصرية فى معابد رع، وقد كان رب الكون حيث لا شىء غير اللجة الطخياء المسماة فى الأساطير المصرية «نون».. وجاء فى الفقرة السابعة عشرة من القسم الأول فى كتاب الموتى على لسانه: «.. وأنا آتوم متفردا فى نون، وأنا رع حيث يزرغ مع الفجر لبيسط يديه على الدنيا التى خلقها..».

وكانوا يمثلونه على تمثال رجل ملتج يضع على رأسه تاجى القطرين، أى التاج الأحمر لمصر السفلى والتاج الأبيض لمصر العليا مجتمعين، ويجعلونه رئيس مجلس الآلهة باسم رع هيرختى أتوم Ra Herakhty-atum.

فهو رب أصيل وليس بالرب المستعار، ولا شبه بينه وبين أدوناي أوادونيس - فى صيغته اليونانية - لأن أدونيس رب الربيع والغرام يتخيلونه

فى ميسم الشباب ويزعمونه زوج فينوس أو الزهرة، ولا شىء من هذا فى خصائص آتوم الذى يبدو على مثال الكهول ذوى اللهى، ويتقلد مفاتح الحكم والحكمة، ويرجع إلى مبدأ الخليقة حيث لا شىء غير الماء والظلام.

والأرياب الشمسيون أشبه بهياكل عين شمس لأنها أرياب أصيلة فيها لا تحتاج تلك الهياكل إلى استعارتها من ديانة أجنبية. ولا سيما الرب الذى يحمل تاجى القطرين ويرأس المحكمة الإلهية فى السماء.

وقد كانت لظهور آتون تمهيدات لازمة لم تحدث فى غير المملكة المصرية، وهى تمهيدات الإمبراطورية، وتمهيدات التنافس بين آمون ورع وفتاح وتمهيدات العبقرية التى تبشر بالدين الجديد.

وكانت لآتون خصائص متفردة لم يشركه فيها إله آخر من الهة الأم القرية إلى مصر، وهذا هو المهم فى نشوء الديانات وليس المهم مجرد التشابه فى مخارج الحروف. فليس أدونيس عند اليونان كأدوناي عند العبريين، وليس هذا ولا ذاك كآتوم فى معبد عين شمس أو غيره من المعابد المصرية، وليس هؤلاء جميعا كالإله آتون الذى دعا إليه إخناتون. فلا وجود لآتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه التمهيدات القديمة التى مرت بعبادة آتوم فى مصر، ومنها اتساع الدولة وإيمان المصريين بصفات رع وفتاح وآمون، وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال فى الإله، ثم عبقرية إخناتون التى تمت بابتكارها واجترائها ما بدأه التاريخ.

وقد كان عرب الجاهلية مثلا يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم، ولكن الله الذى وصفوه والله الذى وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرياب.

على أن ويجال يقابل بين معانى إخناتون ومعانى المزمور فيرجح لاستعارة بينهما، ويعود فيرجح أن إخناتون كان فى غنى عن الاستعارة لما طبع عليه من العبقرية الدينية وما اتسم به كلامه من طابع الابتكار.

وقد تناول العلامة «فرويد» مسألة المقابلة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية فألف آخر كتبه في موضوع هذه المقابلة وسماه «موسى والوحدانية» Moses and monotheism وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه: وهو أن موسى عليه السلام تربى بمصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين أتوم وأمون، واستعد للنبوذة فى هذه البيئة الموحدة فعلم بنى إسرائيل كيف يوجدون الله ويعظمون صفاته وآلاه وكان خروج بنى إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، أى فى الجيل الثانى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية... واسترسل فرويد فى تقديراته - وهو من بنى إسرائيل - حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى، وليس من اللاويين كما جاء فى العهد القديم.

لكن المحقق أن بنى إسرائيل قد أخذوا كثيرا من عقائد المصريين وشعائهم قبل عهد إخناتون بعدة قرون، وبعده بعدة قرون.

إلا أن هذه الدعوة - دعوة إخناتون - كانت صحوة وجيزة تبعتها نكسة سريعة من جراء الأحداث السياسية التى أحاطت بالدولة، ومن كيد الكهان المخلوعين فى طيبة وما جاورها، وهم كهان أمون الأقوياء الذين سلبهم إخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والمحراب. ولعلمهم كانوا مخفقين فى كيدهم لو اصطنع هذا المصلح الكبير شيئاً من الدهاء ولم تدفعه الحماسة الروحانية وراء كل تقدير وتدبير. لأنه هجم على الشعب فى أعز العقائد عليه وهى عقيدته فى أساطير عالم الأموات وشعائر الإله أوزيريس رب المغرب والخلود. فأنكر سلطان أوزيريس على الأرواح وجرده من قدرة الحكم عليها بالعقاب أو العذاب. فلم يؤمن بجحيم أوزيريس ولا بجحيم غيره، وبشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف.. تحياها الروح بين الهدوء فى ظلمة الليل واستقبال الضياء من وجه أتون.

ولهذه بقيت عبادة أوزيريس وإيزيس بين المصريين كما بقيت بين اليونان والرومان وانطوت أيام أتون بانطواء أيام نبى أتون.

الهند

ترجع الديانة الهندية القديمة إلى أزمنة أقدم من العصر الذى دوت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيديّة.

ويختلف المؤرخون المختصون بالهند فى العصر الذى تم فيه هذا التدوين، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد. ولكنهم لا يختلفون فى سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزمن طويل.

ومن المتفق عليه أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء وشعائر القبائل الآرية التى أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون. وقد كانت هذه القبائل الآرية تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادي النهرين. فاتجهت طائفة منها غرباً إلى أوروبا، واتجهت طائفة منها شرقاً إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها على السواحل الغربية، قبل أن توغل منها إلى جميع أنحاء البلاد.

ويعتقد فريق من المؤرخين أن الديانة الهندية القديمة لا تخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية، ويعلمون ذلك بتوسط الموقع لذى أقام فيه الآريون والأولون، وإنهم لم تكن لهم فى موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور. فلا خلاف فى أن تاريخ الأسر المصرية أسبق من تاريخ الكتب الفيديّة وأسبق من كل حضارة عرفها التاريخ للآريين، حيثما أقاموا من البقاع الآسيوية أو الأوروبية.

وقد اشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة التى تقدمت الإشارة إليها. . ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها. فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم «المطر» فهو الإله الذى يوجهون إليه فى طلب الغيث. ومن هنا اسم «أندرا» إله السحاب المشتق من كلمة «أندر» بمعنى المطر أو بمعنى السحاب.

وكذلك يذكرون إله النار وإله النور وإله الريح وإله البحار ويجمعونها في ديانة شمسية تلتقى بأنواع شتى من الديانات. . وأقدم معانى الإله عندهم معنى «المعطى» أوديفا Deva بغتهم التى بقيت آثار منها فى اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الحديثة. فكلمة «ديو» الفرنسية Dieu وكلمة ديتى Deity الإنجليزية وكلمة زيوس اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندى المتقدم. ويرجحون أن جوبيتر عند اللاتين - وهو «المشترى» فى اصطلاح علم الهيئة - هو مزيج من كلمة المعطى وكلمة الأب، بمعنى أبى العطاء أو الأب المعطى للجميع، وهما فى الهندية القديمة ديوس بيتار Dyaus-petar إذ لا تزال كلمة الأب فى أكثر اللغات الأوروبية متفرعة من هذا الجذر الأصيل على تعدد اللهجات ومخارج الحروف.

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية، فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة، تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر فى الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة، ويحسب العلامة إليوت سميث - كما قال فى كتابه «المبادئ» The Be-ginning: إن مراسم تقديس الملك التى لا تزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليفة كما تخيلها المصريون. . فلم يكن حق الملك مستمدا من الجلوس على العرش أو من البناء بالملكة التى تنقل إليه حقوقه الملكية، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه فى حفل يمثل قصة الخليفة، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة، وهى قدرة لا غنى عنها لاضطلاعها بالفرائض الملكية».

وقصة الخليفة فى الهند تشبه قصة الخليفة المصرية فى أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة: فالحياة خرجت من بيضة «ذهبية» كانت تطفو على الماء فى العماء، والإله الأكبر كان ذكرا وأنثى فهو الأب والأم للأحيا كما جاء عن رع» فى بعض الأساطير المصرية، وبناء العالم من صنع بناء ماهر فى

أساطير مصر والهند على السواء، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة.. فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود.

وتعززت في الهند عبادة «الطواطم» بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول.. فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم للقبيلة. ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه، وآمنوا بتناسخ الأرواح فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا إلى الحياة في محنة التكفير والتطهير. فعاشت عندهم الطوطمية في أرقى العصور كما عاشت في عصور الهمجية، لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم. لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد، وإن اختلفوا في المنهج الذى سلكوه. فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد.

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستر من ورائها الحقيقة الأبدية التى لا تتكرر ولا تزول، وتلك هى حقيقة القضاء والقدر، التى تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضى عليها فى أجلها المحدود.. وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين: فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلها واحدا قريبا من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد. قال ماكس مولر الثقة الحجة فى اللغات الآرية: «أيا كان العصر الذى تم فيه جمع الأناشيد المسطورة فى الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لا هو يذكر ولا بأثنى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية، وارتفع شعراء الفيدا فى الواقع إلى أوج فى إدراكهم لكنه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير

أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يظن بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين».

وتبدو مدانة هؤلاء البراهمة لمذهب الموحد المؤمن «بالذات الإلهية» من إيمانهم بالخلص على يد الله، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص على نهجهم للذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم. فمنهم من يسمى سبيل الخلاص بالسبيل القردية ومنهم من يسميها بالسبيل القطية، ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلى رؤوس الأشجار، أو أن الله على اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهي تحمله مغمضا من مكان إلى مكان.

فالله الذي يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو «ذات» على كلتا الحالتين يتشبث بها العابد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها.

ويتسمى هذا الإله بثلاثة أسماء على حسب فعله في الوجود. فهو «برهما» حين يكون الموجد الخالق، وهو فشنو حين يكون الواقي المحافظ، وهو سيفا حين يكون المهلك الهادم. ولا نهاية للتداخل ولا للترجيح بين هذه الأسماء والوظائف والأفعال، على تباين النحل والملل والأجيال.

أما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من «الذات» الواعية، وإنما هو قانون يقضى بتلازم الآثار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية، ونعنى بها الإسرائيلية والمسيحية والإسلام.

إلا أنه قضاء يسرى على الآلهة كما يسرى على البشر، ويتغلغل في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات، وحكمه الذي لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء وحكم الإعادة والإبداء.

ولا نحسب أن أحدا من الأقدمين بلغ فى إعظام الأكوان المادية مبلغ البراهمة، سواء فى تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء. فإن أناسا من الأقدمين لم يجاوزوا بعمر الأكوان المادية بضعة آلاف سنة. وأناسا منهم جعلوا لها خلقا واحدا وفناء واحدا خلال أجل مقدور من القرون. ولكن البراهمة جعلوا له أربعة أعمال تساوى اثنتى عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلاثمائة وعشرين ألف سنة شمسية، وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون جميعا أنها دورة واحدة من دورات الوجود، وأن هذه الدورة هى يوم يقظة يقابله ليل هجوع، ينقضى بين كل دورة فويت وكل دورة آخذة فى الابتداء.

والقانون الأبدى Kerma يقلب هذه الأدوار فيبديتها ويحفظها ويفنيها ثم يختم هذا النهار بليل من ليالى الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى دواليك إلى غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان.

ويتضاءل الإنسان القانى كلما تعاضم هذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذى تجدد بالفناء، فليس للإنسان حساب كبير فى هذه الحسبة الأبدية. لأنه «رقم» ضئيل يغرق فى طوفان الأرقام التى لا يحيط بها العد والإحصاء.

وعلى هذه القاعدة قامت البوذية التى بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحى بحوالى خمسة قرون. . فقبل «جوتاما» بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد المرهوب الذى ترجمه ماكس موللر إلى الإنجليزية وجاء فى عما كان قبل أن يكان أو يكون:

- حيندام لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد، ولم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه.

- لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء.

- وماذا عساها تنطوى عليه؟ أين كانت وأين قرارها؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار؟

- لم يكن موت: فلم يكن خلود.

- لم يكنما يموت فلم يكن ما ليس يموت.

- ولم يكن ثمة نهار ولا ليل. ولم يكن إلا «الأحد» يتنفس حيث لا

أنفاس. ولا شيء سواه.

- وكان البدء في ظلام: عيلم بلا ضياء.

- ومن البذرة في تلك القشرة قام «الأحد» بحرارة الحياة.

- وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لبل العقل السرمدي، وناجى

الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو عما ليس هو. فقد نفذ شعاع القلب

خلال ما هنالك، فماذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه؟ كل ما هنالك

حملة لبذور. قوى: قوة من أدنى ومشئمة من أعلى. ولا أحد يدرى. ولا من

يعلم من أين جاء ما جاء. وإنما جاءت الأرياب بعد ذلك. فمن إذن يعلم ما

جرى؟ أهو الذى حدثت منه الخليفة؟ لعل الذى يعرفه «زحد» وأحد فى أعلى

عليين. ولعله لا يدرى كذلك...».

وقبل «جوتاما» آمن ابراهيميون بالدورة فى وجود الكون والدورة فى

وجود الإنسان. فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة، والإنسان ينتقل فى جسد بعد

جسد، وسلسلة الأكوان ليس لها انتهاء، وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهى

إلى السكينة أو الفناء.

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد

الأصول. وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات

الكهان، فأخرجتها من حجابها المكنون فى المحارب إلى المدرسة والبيت

وصفوة المريدين، ولا تعتبر البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية بل إضافة

فى آداب السلوك وفلسفة الحياة، وإضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين

بها قديما من سدنة الهيكل والمحارب.

وخلاصة الفلسفة التي أتى بها البوذا جوتاما هي تقريره هذه المبادئ الأربعة وهي:

«أولاً» أن هناك عذاباً وشقاء، و«ثانياً» أن هناك سبباً للعذاب والشقاء، و«ثالثاً» أن هذا السبب قابل للزوال، و«رابعاً» أن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار.

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذي جعلنا نتعلق بالوهام وننسى لباب الأمور، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل.

والعرض هو كل ما يزول ويتغير، وهو من شر وفساد. وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال. فما من شيء ثم «يكون» بل كل شيء يصير ولا يكف عن التغير. أو كما قال: «إن الناس يؤمنون بالثنائية، فيؤمنون بأن الشيء إما كائن وإما غير كائن. ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان، وأن الحقيقة وسط بين الطرفين.

وعلى هذا النحو ينكر البوذا وحدة «الشخصية الإنسانية» لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمراً للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة في كيان واحد. ومفسرته في العصر الحديث يمثلون لذلك بشريط الصور المتحركة الذي يلوح لنا شيئاً واحداً وهو خطفة بعد خطفة من الألوان والظلال.

وإذا كان الشقاء في التطرف بالحس إلى التقيضين، فالخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل طرفين، وبهذا نميط عنا غشاوة الخداع الذي يتراءى على ظاهر الأشياء للنفاذ إلى ما وراءها من سر الوجود.

فلا استغراق في إرضاء الحس ولا استغراق في قمعه وتجريده، بل توسط بين الغائيتين في أمور الحياة الثمانية، وهي الفهم والعزم والكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح.

فالفهم طرفاه التصديق بكل ما يقال وإنكار كل ما يقال. والوسط بينهما التمييز بين الباقي والزائل والظاهر والباطن والثابت والذي ليس له ثبوت. والعزم طرفاه التهافت والإهمال. والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح.

والكلام منه المهجور ومنه المطروق. والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحال.

والسلوك طرفاه المحاباة مع الغرض والإجحاف مع الغرض والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذلك.

والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقا حلالا يتسرع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين.

والعمل الصالح أن يعرف ما يتغيه ويقيس طاقته على مراده ويلتزم في كل ما يريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف.

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم والعكوف على الحق البريء من النزغات.

والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذي يتاح للإنسان في هذه الحياة فيبلغ به ملكوت «الترفانا» الأرضية في انتظار النرفانا الصمدية، وهي السكينة أو الفناء، وبينها وبين العدم فرق كبير. لأنها هي وجود يفنى في وجود، ويفسرها بعض العصريين من أذكى البوذيين بفناء ألوان الطيف في البياض الناصع الذي ليس له لون، وهو ملتقى جميع الألوان.

بهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت والتجدد في حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان، فيدخل في «الترفانا» ولا يولد بعد ذلك ولا يموت.

وحكمه في هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السموات والأرضين. فكلها خاضع لقانون القضاء والقدر الذي لا فكاك منه لموجود،

وكلها عرضة للتكفير والتطهير والتحول والتغيير، ثم للذهاب فى غمرة الفناء الأخير .

وموضع التناقض فى هذه لفلسفة أنها تنكر «الشخصية الإنسانية» .ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شىء فى الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات .

وأنها تؤمن بالكل أو «المطلق» الصمدى الوجود، ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان . مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعنى من معانى الكلمة ولكنه شتات من أجزاء متفرقات .

وعلىنا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوروبيين بهذه الفلسفة البوذية . لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوروبيين الأقدمين والمعاصرين .

فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء، وزعموا أنها «جرأة العقل الكبرى» فى مواجهة المشكلة الكونية، وإنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة فى مطاوح التأمل والإقدام .

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف، فما هى إلا جرأة حسية فى أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأطنانين، وما البوذية كلها إلا تمللا من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقا بالحس وهربا منه إلى الفناء أو «اللاوعى» على أحسن تقدير .

والمحسوس عندها شامل للمعقول، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحق الوعى وحق الذات .

والآلهة عندها تأتى فى المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان، وما ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا بأنها هى المحسوس، وهى أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد .

الصين

أما الصين فإنها - كالمعتاد من أمة في ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها - قد اختبرت جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها.

ولكنها - على كثرة العبادات التي دانت بها - لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل الهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين. لأنها لم تخرج للعالم قيما دينية تلقاها منها، وهى باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستنفدة فى مسائل الديانات. لأنها أخذت من الخارج قديما وحديثا عقائد البوذية والمجوسية والإسلام والمسيحية ولم تعط أمة عقيدتها، مع استثناء اليابان التي أخذت عنها نحلة كنفشيوس.

وأهل الصين لا يخوضون كثيرا فى مباحث ما وراء الطبيعة، ويوشك أن يكون التدين بينهم ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.

فأشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال، وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التي يعبدونها ويمثلون بها عناصر الطبيعة أو مطالب المعيشة، ولا يقدر الصينى قربانا هو أعلى فى قيمته وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود، وهو يحتاج الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شىء كانت تحتاج إليه وهى فى عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف أن يسخطهم من أعمال أبنائهم. فما أرضى السلف فهو خير وما زسخطهم فهو شر. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويسكونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هى التي تتقبل هذه القرابين فى شخص ذلك الحفيد.

وتتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنبا إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال. فالسما والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء «شانج تى» ويليه إله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربون إلى «شانج تى» بالذبائح ويبلغونه صلواتهم بإشعال النار على قمم الجبال، فيعلم الإله - مما أودعه الكاهن دواخينها - فحوى الرسالة التى يرفعها إليه عباده، ولا يسحنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

والله السماء هو «الإله» الذى يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لا محيد عنه. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما «ين» عنصر السكون و«يانج» عنصر الحركة. وقد يفسر عنصر الكسوت بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب. فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الأديان الثنائية.

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية فى القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم «ابن السماء». ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن يابانى أراد أن يزلف إليه فعلمه مراسم تأليف الميكاد فى بلاده. فنقلها العاهل إلى بلاط الصين.

وأراد الفيلسوف «شوهسى» فى القرن الثانى عشر أن ينشئ بوذية صبية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح، ووضع «لى» موضع «كارما» الهندية أو القانون أو القضاء والقدر. وسمى دولاب الزمن «تايشى» لأنه هو المحرك لجميع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو «ووشى» قوام العالم ظاهره وخافيه. فالمادة تحد من القانون، والقانون خالد لا وعى له ولا يسمع ولا يجيب، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من ازناد، فيخرج الشرر ثم ينطفئ فيموت. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى «نضجت» كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم. وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أو شبح، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال.

وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون. فاسم كنفشيوس أشهر هؤلاء المعلمين «كنج فو» وأضيفت إليه تسمى أى المعلم.

وكذلك «لاو» الذى ولد قبله ولم يشتهر فى خارج الصين مثل اشتهاره يعرف بلاوتسى أى المعلم لاو. وكلاهما يشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء. والفرق بينهما هو فرق فى الخلق والمزاج وليس بفرق فى العقيدة والإيمان. فلاو يقول: «من كان طيبا معى فأنا طيب معه، ومن أساء إلى فأنا طيب معه كذلك. فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال» أما كنفشيوس فهو يوصى بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الإحسان بالإحسان.

ولما مات كنفشيوس «٤٧٨ ق.م» أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة «رسية» أى حكومية على عهد أسرة هان فى القرن الثانى قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لمساع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة. ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى القرن العشرين. فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر «شانج تى» إله السماء لأنه فى عرفهم «ند السماء»... ومن لم يؤمن اليوم ببربويتته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرون من شهر أغسطس - عيدا قوميا يحجون فيه إلى مسقط رأسه، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه.

وشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر «السلوك» وفرائض التهذيب والتثقيف، ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف. وليس فى تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة القوية والتعصب العنيف، بل ليس شىء من ذلك فى معرض من معارض الروح لقومى التى تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق. لأن الدعة سمة عامة لمزاج القوم أو «روح الأمة». وهم

متفائلون قلما يحنقون على الحياة ولا على الأحياء، وغالب الرأى بين حكمائهم أن الإنسان طيب بالفطرة وأن الحياة ترضى من لا يسرف فى تقاضيتها ويلحف فى الطلب عليها. ولا تأتى الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة الآثرة فيندفع إلى غاية الإصرار، وينقلب من ضميره إلى أعماق الأغوار. ولا شك أن شعور النفس «بالقدرة الإلهية» يتوقف على هذه الحالات التى تنتهى إليها قدرة الإنسان. فلا جرم «يتوسط» أهل الصين فى عقائدهم فيخلو إيمانهم بالإله من ذلك العمق الذى يغوص إليه الإنسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور.

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التى تعودت الشعوب قديما أن تروضها بالسحر والكهانة، فجاز نصيب الإيمان بالسحر على نصيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين - من ثم - أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاء.

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال. فقد تشابهت عقائدهم فى أصولها وعبادوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية، واستعاروا البوذية والإسلام والمسيحية على تفاوت فى عدد الأتباع من كل دين، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف. فلا مخافة بينهم فى هذا إلا بإفراط أهل اليابان فى تأليف صاحب العرش واعتداك أهل الصين فى تقديسه كاعتدالهم فى جميع الشئون.

وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات فهى أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها. وتلك الربة هى «أميتراسوا - أموكامى» التى لا تزال معبودة إلى اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردهم منهزمين إلى الجبال.

وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر «سوسا - نو - وو» فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلى المرتبة التالية لمرتبة الربة السفية. ثم انعقد الوثام بن الفريقين بعد تناسى الأحن والتراث وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة، فأصبح الإلهان أخوين وأصبحت «أميتراسو» هي كبرى الأخوين.

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب، وهذه الأرباب عندهم هي بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية. ويسمون الواحد منها «كامي»... وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة بالغ فى القوة أو الجمال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلى الربة الكبرى برضوان من خالق السموات والأرضين.

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلى إله السماء «أناجى - نوميكوتو» وزوجته وأخته إلهة الأرض «أزانامى - نوميكوتو». فولدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة... فكلهم فى النسب الأعلى - وليس الميكاد وحده - إلهيون.

وفى إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهى تضع له النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمى وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلق فى رواية أخرى إلى «أناجى» وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر، ومن عطسته خلق «سوسا - نو - وو» رب الرياح والأمطار. ولكنه

أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقها فخلع عليها عقدا يتلأأ بالجواهر
ويوأها أرفع عرش فى السماء .

فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسية سلفية جمعت معنى التوحيد أولاً
فى إله السماء حيث تصوره أباً للخليفة بمفرده أو بمشاركة زوجته، ثم جمعتهما
فى الربة الواحدة على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

فارس

لعل تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمم الآسيوية، لتوشح القرابة بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية، وارتباطه بالتواريخ السابقة له واللاحقة به واقتباس الديانة الفارسية من غيرها واقتباس غيرها منها، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت صاحب الشريعة القومية في بلاد فارس وأرفع الأعلام شأنًا بين دعاة المجوسية من أقدم عصورها إلى أحدثها.

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل، قريب من أقاليم الطورانيين، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب، وقد تلاقت حضارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة، وانقضى زمن طويل على الدنيا المتحضرة وهي تقرن بين المجوسية وبين الحكمة أو العلم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة والدولة البابلية تارة أخرى. فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين.

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة «مترا» إله النور وتسميه الإله بالـ«أسورا» أو الـ«أهورا» وإن اختلفوا في إطلاقه على عناصر الخير والشر. فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح وجعله الهند من أرباب الشر والفساد.

والبابليون عرفوا عبادة «مترا» في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورفعوه إلى المنزلة العلية بين الآلهة التي تحارب قوى الظلام.

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم، فأخذوا منهم سنة التسبيع في عدد الآلهة، وجعلوا أورمزد على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات.

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطورانيين، لأن «زرادشت» عاش بينهم زمنا وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم في عباداتهم ليجاروه في عبادته، وأدخل أريابا لهم في عداد الملائكة المقربين.

ويعتقد المجوس في بعض أساطيرهم أن «زروان» أبو الإلهيين إله النور والظلام. ولعل «زروان» هذا صنو لإله البابليين «نون» أو القدر الذي يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات.

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب في الدار الآخرة، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الأرواح للحساب في يوم القيامة. . ولعلمهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند في نهاية العالم وعقيدة المصريين في محاسبة الروح ووزن أعمالها في موقف الجزاء.

ولم يكن اليهود يتكلمون عن «الشياطين» قبل السبي أو قبل الإقامة فيما بين النهرين فتكلموا عن الشيطان بعد أن شبهوه «بأهرمان» الذي يمثل الشر والفساد عند المجوس.

وفي الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد السيد المسيح وعلموا بنبته فاهتدوا إليه بنجم في السماء. وذكر أفلاطون زرادشت في كتاب «السيادس» فسماه زرادشت بن أورمزد، وقال بليني في تاريخه الطبيعي أنه المولود الذي ضحك يوم ولادته، وقال ديو كريستوم Dio Chrysostom أنه لا الشاعر هوميروس ولا الشاعر هزبود بلغا مبلغ زرادشت في الإشادة بمجد «زيوس» رب الأرباب في علياء مجده.

فتاريخ الديانة الفارسية عامة وتاريخ زرادشت خاصة على ارتباط وثيق بتواريخ العقائد الآسيوية وتواريخ بعض العقائد في مصر واليونان.

ولكن «زرادشت» لا يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق، فالمراجع

اليونانية ترده إلى القرن الستين قبل الميلاد، والمراجع العربية ترده إلى ما قبل الإسكندر بنحو مئتين وسبعين سنة. فهو على هذا قد ولد حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وهو أصح التقديرات، وقد اعتمده الثقات الباحثون في تاريخه فرجحوا، كما رجح كاسارتللي وجاكسون، أنه ولد سنة ٦٦٠ ومات سنة ٥٨٣ قبل الميلاد.

ويقول الشهرستاني أن أباه من أذربيجان وأمه من الري، ويكاد يتفق المؤرخون على أنه قد ولد في الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطئ نهر يسمونه في الكتب المجوسية داريزا ويعرف أخيرا باسم أراس.

ويزعم بعض مؤرخيه أن اسمه مركب من كلمتين في اللغة القديمة معنا معاكس الجمل، لأنه كان في صباه يعبث بالجمال، ويجعلون لهذه التسمية شأنًا في وصاياه العديدة بالإشفاق على الحيوان، كأنه يكفر بذلك عن قسوته عليه في صباه.

وخلاصة ما جاء به «زرادشت» من جديد في الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى، وبشر بالشواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه.

وليست المجوسية كلها من تعليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية. فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم في أصل الوجود وتنازع النور والظلام، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير.

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان إله قديم يسمى زروان ويكنى به عن الزمان. وإنه اعتلج في جوفه وليدان فنذر السيادة على

الأرض والسماء لأسبقتهما إلى الظهور، فاحتال أهرمن بخبثه وكيده حتى شق له مخرجا إلى الوجود قبل «هرمز» الطيب الكريم، فحققت لأهرمن سيادة الأرض والسماء، وعز على أبيهما أن ينقض نذره، فأصلحه بموعده ضربه لهذه السيادة ينتهى بعد تسعة آلاف سنة. ويعود الحكم بعده لإله الخير خالدا بغير انتهاء، ويؤذن له يومئذ في القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام.

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وأن هرمز طفق فى مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان غافل عنه فى قراره السحيق، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور يوشك أن يتتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضمن فيه البقاء. فثار وثار معه خلائق الظلام وهى شياطين الشر والفساد، فأحبطت سعى هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء. . وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة «زرادشت» فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان، ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف، وتراجع الشر والظلام عن مملكته الخير والنور، وسيدوم هذا الصراع اثنى عشر ألف سنة، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زرادشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع الفشل فى جحافل أهرمن، وتنقضى المدة فينكص أهرمن على عقبيه مخلدا فى أسفل سافلين لا فكاك له أبدا الأيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان.

وتدل تسمية الإلهين دلالة واضحة على انتقال الفكرة الإلهية طبقة طبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه. فإن هرمز مأخوذ من «أهورا» بمعنى السيد، و«مازداو» بمعنى الحكيم، وأهرمن مأخوذ من «أنجرو» بمعنى السىء وما ينوش بمعنى الفكر والروح، والمعنيان معا من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد. ثم أصبحت كلمة أرمزد مرادفة لروح القدس وكلمة أهريمان مرادفة

لروح الشر أو روح الأذى والفساد، وقيل فى مجمل الأساطير المجوسية أن
أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت على بال زروان فكان منها إله الظلام.

ويخيل إلينا أن زرادشت كان خليقا أن يسمو بعقيدة المجوس إلى مقام
أعلى من ذلك المقام فى التنزيه، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند إلى منزلة
المارد المطرود، لولا أن وجود «أهرمن» كان لازما لبقاء الكهانة الفارسية فى
عهدو المحن والهزائم التى منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل
والانكسار. فلو قال الموابذة للمؤمنين بهرمز أنه هو الإله المتفرد فى الكون
بالتصريف والتقدير لكفروا بدينهم وحاروا فى أمرهم، ولكنهم يكبرون من
قوة أهرمن ويجعلون انتصاره عقوبة للناس على تركهم للخيرات وحبهم
للشور، ثم يبشرونهم بغلبة الإله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة، فتهدأ
وساوسهم إلى حين.

على أن «زرادشت» قد استخلص من أخلاط المجوسية عقيدة وسطا بين
العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة، سواء فى تصحيح الفكرة
الإلهية أو مسائل الأخلاق ومسائل الثواب والعقاب.

فالله فى مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى يترقى
إليها عقل بشرى يدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين فى الوجود.

فالخير عند زرادشت غالب دائم، والشر مغلوب منظور إلى أجل
مسمى، وما زال «أهرمن» يهبط فى مراتب القدرة والكفاية على هذا المذب
حتى عاد كالمخلوق الذى ينارح الخالق سلطانه، ولا محيص له فى النهاية من
الخذلان.

وفى «الزندفستا» يقول زرادشت أنه سأل هرمز: «يا هرمز الرحيم!
صانع العالم المشهود. يا أيها القدس الأقدس: أى شىء هو أقوى القوى
جميعا فى الملك والملكوت؟».

فقال هرمز: «إنه هو اسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين. فهو أقوى القوى فى عالم الملكوت».

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له إنه «هو السر المسئول» وأما الأسماء الأخرى فالاسم الأول هو «واهب الأنعام» والاسم الثانى هو المكين، والاسم الثالث هو الكامل، والاسم الرابع هو القدس، والاسم الخامس هو الشريف، والاسم السادس هو الحكمة، والاسم السابع هو الحكيم، والاسم الثامن هو الخبرة، والاسم التاسع هو الخبير، والاسم العاشر هو الغنى، والاسم الحادى عشر هو المغنى، والاسم الثانى عشر هو السيد، والاسم الثالث عشر هو المنعم، والاسم الرابع عشر هو الطيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق، والاسم السابع عشر هو البصر، والاسم الثامن عشر هو الشافى، والاسم التاسع عشر هو الخلاق، والاسم العشرون هو «مزدا» أو العليم بكل شىء.

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على أنها أسمى وأطهر العناصر المخلوقة، لا على أنها هى الخلاق المعبود. وقال إن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحا صافية لا تشاب بالتجسيد، فخيرها الله بين أن يقصبيها من منال «أهرمن» أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه والصمود فى ميدانه، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد. فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه، واختارت التجسد لتؤدى فريضة الجهاد فى ذلك الصراع.

ويتخيل زرادشت «هرمز» أو أورمزد أو «أهورا مزدا» أو يزدان - على اختلاف اللهجات فى نطقه - مستويا على عرش النور محفوقا بستة من الملائكة الأبرار، وتدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة، ثم استعيرت لها سمات «الذوات» بعد تداول الأسماء أو تداول الأنبياء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحى الله.

وتغيب أقوال «زرادشت» كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان. ومن أمثلة هذا اليقين قوله: «أنا وحدي صفيك الأمين، وكل من عداى فهو عدو لى مبن». وأن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعا، فإن هى حادث عن سواء السبيل كان إرسال الرسل للتذكير والتحذير آخر حجة لله على الناس. وأن زرادشت هو هذه الحجة التى أبرزها الله إلى حيز الوجود لتهدى من ضل وتذكر من غفل وتستصلح من فيه بقية للمصالح، وكلما نقضى ألف عام برز إلى حيز الوجود خليفة له من سلالته، ولكن الأرواح التى تحف بالعرش هى التى تحمل بدرته إلى رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر فى تلك الساعة بالماء المقدس فى عين صافية مدخرة فى ناحية من الأرض ليومها الموعود.

ويتخيل زرادشت أنه يناجى هرمز ويسمع جوابه ويسأله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه. فيناديه: رب! هب لى عونك كما يعين الصديق أخلص صديق. ويسأله رب! ألا تنبئنى عن جزاء الأخيار؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والزرع؟ ومن أجم للرياح سحب الفضاء وهى أسرع الأشياء؟

ولا يبعد أنه كان من أصحاب الطبائع التى تغيب عن الوعى أو تسمع فى حالة وعيها أصواتا خفية من هاتف ظاهر أو محجوب، كما روى عن سقراط وأمثاله من الموهوبين والملمهين.

ورواية الخليفة فى مذهب زرادشت أن هرمز خلق الدنيا فى ستة أدوار. فبدأ بخلق السماء، ثم خلق الماء، ثم خلق الأرض، ثم خلق النيات، ثم خلق الحيوان، ثم خلق الإنسان.

وأصل الإنسان رجل يسمى «كيومرت» قتل فى فتنة الخير والشر فنبت

من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة، فتزوجا وتناسلا وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين.

ويفرق المجوس بين الخلائق جريا على مذهبهم فى اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث، أو بين إله النور وإله الظلام. فالأحياء النافعة من خلق أهرمن كالثور والكلب والطير البرىء، والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شبهها من الحشرات والهوام.

والناس محاسبون على ما يعملون. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب فى سجل محفوظ. وتوزن أعمالهم بعد موتهم فمن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب فيه ولا نعيم، إلى أن تقوم القيامة ويستطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعا إلى حضرة هرمز فى نعيم مقيم.

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة «شنفاد» تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها. فيلقاها هناك «رشنوه ملك العدل وميترا رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعدار والشفاعات» ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

ونعيم المجوس من جنس الحسنات التى تجزى بذلك النعيم. لأن المجوس لا يستحبون الزهد فى الحياة ولا يصدقون عن المتاع المباح. فمن عاش فى الدنيا عيشة راضية وكسب رزقه بالعمل الصالح وأنشأ أبناءه نشأة حسنة فجزاؤه فى النعيم رغد العيش وجمال السمى وطيب المقام بين الأقرباء والأصفياء، ويسقى من لبن بقرة مقدسة درها. غذاء الخلود ومن كسب رزقه من السحت والحرام فجزاؤه فى الجحيم عيشة ظنك وألم كالم الجوع والعرى والذل والاعتراب عن الأحباب.

وهذه الخلاصة ترسم لنا اتجاه مذهب «زرادشت» ولكنها لا ترسم لنا

شعب المجوسية التي يشتبك بها هذا المذهب فى مواضع ويفتق عنها فى مواضع أخرى. وقد أجمل الشهرستاني بيان هذه المذاهب فى كتابه الملل والنحل، وهو أيسر المراجع فى هذا الموضوع.

ولم تختم المذاهب المتجددة فى المجوسية بمذهب زرادشت وتفسيراته المتعددة. بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون: وأشهرها وأهمها فى تاريخ المقابلة بين الأديان، مذهب مترا ومذهب مانى المعروف بالمانوية.

انتظر مذهب «مترا» فى العالم الغربى بعد حملات «بومبى» الآسيوية وتدفق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى. وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء، ويقول إن الشمس تشع عليهم قبسا من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله فى عليين.

وشاع هذا المذهب بعض الشيعون فى القرن الثانى قبل الميلاد، وقصر أتباعه على الذكور دون الإناث وجعل لهم درجات سبعا يرتقونها إلى مقام العارفين الواصلين رمزا إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء إلى سماء، حتى تستقر فى نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار.

ويحتفل بالمريد كلما انتقل من درجة إلى درجة فى وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ويمسح بالماء الطهور، ولا يطلع قبل الدرجة الرابعة على أسرار المحراب، بل يقتصر فى العلم بتلك الأسرار على التقليد، ثم يترقى فى معرفة السر الأعظم إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة فى مقام العارفين الواصلين.

واصل «مترا» قديم فى الديانة الآرية، يدين به الهنود كما يدين به الفارسيون، وقد هبط فى الديانة الزردشتية إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين. ولكنهم جعلوه فى الديانة المترية إله الشمس ورب الكون وخالق

الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاء طويل. ولا يسبقه فى الوجود شىء غير «الأبد» أو «الزمان» أبى الأرباب عندهم وأبى كل موجود. ويمثلون مترا حين تجسد على الأرض مولودا من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته فتقدموا إليه بالهدايا والقرايين، ومضى بعد ولده فستر عريه بورق من شجرة التين، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع.

وكان أهرمن يحابه يوتعبه بالكيد ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح فأرسل مترا على الأرض طوفانا أغرقها، ولم ينبج معه إلا رجل واحد حمل آله وأنعامه فى زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان، ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد إلى السماء، حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم على النجاة من حبال الشيطان.

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد، ويحتفلون بمولده فى الخامس والعشرين من ديمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطول ساعات النهار، ويقيمون له عيدا سنويا فى اليوم السادس عشر من الشهر السابع فى تقويم الفرس القديم. وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك - بعد ظهور المسيحية وانتشارها - بتمجيد السيد المسيح فى الأيام التى كان عبا مترا ينصرفون فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسى القديم.

أما المانوية فهى مذهب مانى بن فاتك الذى يرجح أنه ولد فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد، ومذهبه يخالف مذاهب المجوس الأقدمين فى زعمه أن آدم من خلق الشيطان لا من خلق الله. وأن الشيطان أودعه كل ما استطاع أن يختلسه من نور السماء ليكفل له البقاء، فلما بصر به الملائكة ولمحوا فيه قيس النور ذهبوا يستخلصونه من قبضة الشيطان ليرتفعوا به إلى العالم الذى هم فيه. ولا يزالون يعملون فى استخلاصه حتى يرجع إلى

السماء آخر قبس من الضياء المسروق . . فيتجلى الله فى سمائه ومن حوله تلك الأرواح النورانية، ويتخلى الملائكة الذين يحملون الدنيا عن حملهم فتساقط كسفا تلتهمها النيران تطهيرا لها من بقايا الرجس والمكيدة، ويتم الانفصال يومئذ بين عالم النور وعالم الظلام.

قال الشهرستانى عن صاحب هذا المذهب «إنه أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم: إن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزيان قويين حساسين سميعين بصيرين وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفى الخير متحاذيان، تحاذى الشخص والظل . . .».

ثم ذكر أمثلة من الاختلاف بين جوهر النور وجوهر الظلمة فقال أن جوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقى الريح حسن المنظر، وأن جوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر، وإن أجناس النور خمسة أربعة منها أبدان والخامس روحها. فالأبدان هى النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، وإن أجناس الظلمة أربعة منها أبدان والخامس روحها والأبدان هى الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان . . .».

وقد أصاب الشهرستانى حين قال إن هذه الثنوية هى ألزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تترأى فى كل مذهب منها بلا استثناء، وهى كذلك أبقى مابقى منها فى مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء. لأننا نرى منها ملامح واضحة فى مباحث التفرقة بين العقل والمادة، ولا سيما مباحث حكماء اليونان.

بابل

والحضارة البابلية من أقدم الحضارات المروية في التواريخ، ويزعم المتشيعون للحضارة الشمرية التي ازدهرت في أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها أنها أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق، ولكنها على الأرجح نزعة من نزعات العنصرية التي تجعل بعض الكتاب الأوروبيين يتجاوزون كل حضارة سامية إلى حضارة سابقة لها منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشرية... ولهذا يبالغون في قدم الحضارة الشمرية وتقدير زمانها السابق لجميع الحضارات.

إلا أن الحضارة البابلية قديمة لا شك في عراقها على تباين الروايات، وهي على قدمها لم يكتب لها أن تؤدي رسالة ممتازة في تاريخ الوحدانية، فكل ما أضافته إلى هذا التاريخ يمكن أن يستغنى عنه ولا تنقص منه بعد ذلك فكرة جوهرية من أفكار التوحيد والتقديس. لأن الوحدانية تحتاج إلى «تركيز وتوحيد» لا يستبان طويلا في أحوال كأحوال الدولة البابلية. إذ كانت لها كهانات متعددة على حسب الخواضر والأسر المتتابعة، وكانت الخواضر بمعزل عن البداية التي تترامى حولها وتنفرد بعقائدها وأساطيرها... أما الأسر المالكة فقد كانت شمرية ثم أصبحت سامية تنتمي إلى أرومات شتى في الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال... وكانت أرض بابل في وسط العمران الآسيوي مفتحة الأبواب على الدوام لما تقبسه من عقائد الفرس والهنود والمصريين والعبريين، وغير هؤلاء من أصحاب الديانات المجهولين في التاريخ.

فلم تتوحد فيها العقيدة حول مركز دائم مطرد الاتساع والامتداد بعيد من طوارئ التغيير والتعديل. وكانت من ثم ذات نصيب في الشريعة وقوانين الاجتماع أوفى من نصيبها في تطور العقيدة الوحدانية على التخصيص.

ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية في الدين لم تتجاوز رسالة الديانة

الشمسية السلفية. . فالغزوات التي تروى عن الأرباب الأقدمين هي غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بلامح الآلهة بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا فسكنوا في مساكن الأفلاك، وحملت الأفلاك أسماءهم ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم.

فمردوخ إله الحرب هو كوكب المريخ، وقد تغلب على تيمات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر وسلسلهم أسارى في مملكته السماوية. فهم المنازل الاثني عشر التي بقيت في علم الفلك إلى اليوم.

وقد اتفق الساميون والشمريون على الأرباب الكبرى كإله النور الذي يسميه الساميون شمس ويسميه الشمريون «آنو» . . . أو كالزهرة ربة الحب أنتى يسميها السميون عشتار ويسمياها الشمريون نسيانة . . . ولكن الأرباب البابلية أوفر عديدا من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أندادا لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد.

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها في كبارها ثم فنائها جميعا في أكبر الأرباب المشرفة على الكون، أو في رب واحد ينفرد بهذا الإشراف. . كأن الطواطم التي عبدتها القبائل والأسر لم يطل بها عهد التطور حتى فعل بها فعله من التصفية والاستخلاص والإدماج والتوحيد. فجاءت الأرباب التالية ولا تزال الأرباب السابقة لها على عهدتها من النفوذ والاستقرار.

ولهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها في الأدوار الأولى أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية. فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم الاعتدال الخريفي لتنظر في السماء مقادير السنة كلها وتكتبها في لوح

محفوظ لا يمحي قبل نهاية العام. وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عامًا بعد عام في مثل ذلك الموعد... فيمثل الكهنة رواية الخلق ويشهدوا الملك فردًا من الأفراد. ويتعمدون في بعض مواقف التمثيل أن يهينوه ويستخفوا به ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان كان له على رعاياه... فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من «مردوخ» يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأخبار.

ولم يؤثر عنهم في عهد الشمريين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء. فمن اجتراً على فعل محرم أو قصر في الصلوات والقرايين فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير، وإن لم يكن جزاؤه مرضاً فهو خسارة في الآل أو البنين أو ذوى القربى والأعزاء، وكل مصيبة من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف أو فريضة منسية، وحث على التذكر وطلب الغفران.

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب. وترسل الآلهة على الأرض طوفانا أو وباء يأخذ البريء بذنب المسيئين، ولكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدهم تفسير ذلك التنذير.

وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخبارا قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كائنات لا تحتاج إلى خالق، ولكنهم يذكرون أخبارا قبل تلك الأخبار يروونها عن «تيمات» ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات. ولأ يفهم من أخبارهم هذه أن تيمات فنشأت الأرباب بقدرة الخلق، لأنها عندهم ربة الفوضى والعماء. ولكنهم يحسبون أن الأرباب كانت تحوم في أغوارها كما تحوم الأشباح في الظلام، ويصورونها في إحدى أساطيرهم - كما يصورون البشر الأولين - أن نصفها سمك ونصفها إنسان.

أما قصص الخلق عندهم فهي مناسبة لموقع البلاد البابلية واشتغال أهلها القديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء، وتدل القصة من أجل هذا على أنها

من مآثورات قوم عريقين فى سكنى تلك البلاد ولم ينقلوها إليهم من بلاد أجنبية عنها، ويرجح ذلك على التخصيص ذكر الطوفان المفصل فى بعض القصص البابلية، لأن الباحثين فى الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال، وأن الجبل الذى استقرت عليه سفينة نوح وهو الجبل المعروف اليوم بجبل أارات، ولم تشتمل قصص الطوفان فى البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل.

وفحوى قصة الخلق بعد استخلاصها من الأوشاب الكثيرة أن الدنيا كانت قسمة بين تيمات ربة الأعمار أو ربة الماء الأجاج وبين «أيا» إله الماء العذب وعنصر الخير فى الوجود. وموقع الأرض البابلية يجعلها فى قبضة هذين الربين ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات.

وقد انهزم «أنو» إله السماء أمام جحافل تيمات فلم يتتصر إلا بعد أن برز من الماء بطل وليد: هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب.

ثم عمد مردوخ إلى تيمات فشقها نصفين: صنع الأرض من أحدهما وصنع قبة الفضاء من النصف الآخر، ثم قيد أسراه فى هذه القبة فهم لا يبرحونها إلا بإذنه، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب.

وقد كشفت الألواح التى تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسمارى فى أواخر القرن التاسع عشر، ونقلت إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تحفظ الآن.

ويتمم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى عن طموحه إلى الخلود واجتهاده فى اختلاس سره من الآلهة. فيعاقب على ذلك بالوت، وتأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق فى نعمة الحياة الباقية.

وتعتبر قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المآثورات البابلية فى علم المقابلة بين تواريخ الأديان.

اليونان

أما تاريخ العقيدة في بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب «الأوليمب» الذين خلدوا في أشعار هوميرو وهزيود.

فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة واستمدوا من جزيرة «كرت» عبادة النيارك وحجارة الرواسب التي شاعت بين أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعوالم السفلية، واتخذها بعضهم «طواطم» ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلى الآباء.

ولما شاعت بين الإغريق عبادة «أرباب الأوليمب» كان من الواضح أنهم أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات.

فالإله «زيوس» أكبر أرباب الأوليمب هو الإله «ديوس» المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة، واسمه متداول في العبادات الأوروبية جميعا مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات، ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطلينان والإنجليز المعاصرين.

والربة أرتيمس - ومثلها الربة أفروديت أو فينوس - هي الربة عشتار اليمانية البابلية... ومنها كلمة «ستار» التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوروبية الحديثة.

والربة «ديمتر» هي إزيس المصرية كما قال هيرودوت، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين.

وأضيف إلى هذه الأرباب «أدونيس» من «أدوناي» عبرية بمعنى السيد أو الإله، وأضافوا إليها في مصر بعد الإسكندر المقدوني عبادة إله سموه سرايبس وهو اسم مركب من اسمي أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين، وكان لهما

معبد تدفن فيه العجول التي تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى مغرب أوزيريس .

كما أضيفت إليها عبادة «ديونيسيس» في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيرا بعبادة «مترا» في الديانة الأورفية السرية .

وقد ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية، فعبدها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهي على أسوأ مثال من العيوب الإنسانية، وعبدها بعد ذلك وهي ترقى إلى الكمال وتقترب إلى فكرة «النتزيه» التي سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون .

فكان أرباب الأوليمب في مبدأ أمر هام يقترفون أقبح الآثام ويستسلمون لأغلاظ الشهوات، وقد قتل زيوس أباه «كرونوس» وضاجع بنته وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك، وضح عليه بسر «النار» فعاقب المارد بروميثوس لأنه قبس له النار من السماء .

ولم يتصوروه خالقا للدينا أو خالقا للأرباب التي تسكنه في جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب . فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها، وتعوزه أحيانا رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد .

ولم يزل «زيوس» إلى عصر «هومير» خاضعا للقدر مقيدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه .

ثم صوره لنا هزيود الشاعر المتدين على مثاله أقرب إلى خلأثق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولية . . . وهي «جيا» ربة الأرض و«كاوس» رب الفضاء وأيروس رب التناسل والمحبة الزوجية، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب . . . وعلى رأسهم «ديوس» الملقب بأبي الأرباب .

وكان «أكسينوفون» المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الاشتباه، فكان ينعى على قومه أنهم يعبدون أربابا على مثال أبناء الفناء، ويقول أن الحصان لو عبد إلهها لتمثله فى صورة الحصان، وأن الأثيوبي أو تمثل إلهها لقال إنه أسود الأهاب، وأن الإله الحق أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات، ولا يكون على شىء من هذه الصفات البشرية... بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال، وإنه فكر محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله فى تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء.

وكان أثر الديانات الآسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم فى الديانة الأوروبية السرية. لأنها كانت ملتقى عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة.

عرفوا الروح وعرفوا تناسخ الأرواح، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير، ومزجوا بها عبادة «ديونيس» الذى كان فى عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف... فجعلوا خمره رمزا إلى النشوة الإلهية: نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام.

وكانت محاربه الكبرى بآسيا الصغرى. ولكنهم كانوا يحتفلون فى أثينا بعيد يسمونه الأنستريا Anthesteria يوافق شهر فبراير، وتقوم شعائره على مزيج من عبادة الحياة وعبادة الأسلاف والموتى، فيشربون الخمر فى جرار الجنائز والقرايين، ويعتقدون أن هذه الخمر تسرى إلى الأجساد البالية فتنتف فيها الحياة وتصلحها للبعث من جديد فى أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية.

ونحن لا نعى هنا بالفلسفة اليونانية. بل نقصر القول فى هذا الفصل على العقيدة اليونانية التى تطورت عندهم تطور الأديان لا تطور الأفكار والمباحث العلمية أو الفلسفية.

ففى هذا المجال - مجال العقيدة - يمكن أن يقال أن اليونان أخذوا فيها كل شىء ولم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر فى مسائل الإيمان، وإنهم حين بدأوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهداً لهم فى العقائد التى أخذوها عن الديانات الآسيوية والمصرية، وأنهم ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التى كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون.
